قصيدة النثر: إشكالية المصطلح

الأستاذ: رابح ملوك
جامعة -تيزي وزو-

<u>قصيدة النثر نتاج حركة الحداثة العربية</u>:

لعلنا لا نكون مجانبين للحقيقة إذا سلمنا مع عزت جاد الحق بأن "قصيدة النثر" تعتبر إحدى محصلات الحداثة في سعيها المتسم بالتوتر نحو التحول والتجديد[1]، وهي حداثة ثائرة على كل ما يتصل بالقديم من تقاليد شعرية وفكرية، ولأن الشعر، فيما يرى محمد عبد المطلب، كان أكثر الأجناس الإبداعية التزاما بالتقاليد والقيود فإن مواجهته أولا ثم التمرد عليه ثانيا كان من أبرز ملامح الحداثة، وكانت ذروة هذه المواجهة توليد جنس أدبي جديد يجمع بين الشعر والنثر، تم الاصطلاح على تسميته "قصيدة النثر" وهي ترجمة للمصطلح الفرنسي Poeme en prose .[2]

إن هذه الحقيقة تتبدى واضحة من حديث أدونيس عن الحركة الحديثة في الشعر العربي، فهو يرى أن هده الحركة تستند إلى أسس عدة منها التمرد على ما يسميه " الذهنية التقليدية" والوصول بهذا التمرد إلى أقصى ما تتيحه التجربة الشعرية، وذلك يعني عدم الخضوع للتقليد لأن التجديد يتطلب الابتعاد عن التقليد وعدم التلاؤم مع أشكاله الشعرية، فالأمانة لهذه الأشكاله وأساليبه فيها نفي للشعر[3]. وللك فإن الشاعر، كما يرى أدونيس، لا يستطيع أن يبني مفهوما شعريا جديدا إلا إذا كابد انهيار المفاهيم القديمة، فعليه، إذن، أن يصفو من التقليدية لكي يستطيع الدخول في العالم الآخر الكامن وراء العالم الذي يثور عليه[4]، وهو دخول لا يتم<< دون الهبوط في هاوية الفوضى والتصدع والنفي>>[5]. ونلفي أدونيس دائم الإلحاح على ضرورة تخطي عهد الثقافة الشعرية القديمة الذي انتهى، إلى عهد آخر، وهو تخط يفرض على الشاعر لا تفردا في الأشكال الشعرية فحسب، بل يفرض عليه أيضا أن يذهب في طريق التجريب إلى أقصى حد.[6]

لقد كانت قصيدة النثر، فيما يرى نجيب العوفي ،ذات ارتباط بالحداثة الشعرية وموجة التجريب الشعري، ومن ثم كانت علاقتها بقصيدة التفعيلة علاقة سلب[7]. وهو الأمر نفسه الذي يذهب إليه صلاح فضل حين يشير إلى أن إقبال المبدعين على قصيدة النثر كان وراءه نظرتهم إليها على أنها شكل حداثي في إطار تيارات التجريب الحداثي.[8]

الجدل حول مصطلح قصيدة النثر:

كان أدونيس أول من استعمل مصطلح "قصيدة النثر"، نقلا عن المصطلح الفرنسي Poème en prose وذلك في مقالة له تحت عنوان " في قصيدة النثر" منشورة في مجلة "شعر"[*].

إن الجدل الدائر حول هذا المصطلح لا يمكن فهمه إلا في سياق توترات الحداثة، وهي توترات تنسحب على دعاة الحداثة مثلما تنسحب على معارضيهم، ومن ثم فإن الصراع بين الفريقين لم يكن حول قصيدة النثر تحديدا، بل كان حول أسس ثقافية وفكرية كانت في أغلب الأحيان متعارضة، وعليه فإن الاستماتة في الدفاع عن قصيدة النثر تشير إلى ذود عن خلفية فكرية قائمة على نشدان الحرية في الفكر والإبداع، وذلك بالخروج على كل الثوابت التي تقنن الفكر والإبداع.

لكن الملاحظ أن الجدل كان منصبا بالدرجة الأولى على الصوت الدال رفضا أو قبولا، فالعناية لم تكن<< باستحداث فن جديد قدر محاكمة الصوت الدال في إقراره الجمع بين نوعين أدبيين منفصلين لهما سياقهما وآلياتهما>>.[9]

وهنا نجد أنفسنا قبالة موقفين لا يلتقيان، يرى أحدهما في المصطلح السالف جمعا غير مبرر بين نوعين متقابلين، بينما يذهب الموقف الثاني إلى جواز الجمع بينهما.

فالباحث عبد الرحمن محمد القعود يذهب إلى أن قصيدة النثر تثير إشكاليات من خلال اسمها نفسه، إذ كيف يمكن الجمع بين متناقضين هما الشعر والنثر[10]، ويشير الباحث إلى أنه طرح في أحد بحوثه[*] مصطلحا بديلا هو "**القصيدة الحرة** "، ولكنه،

فيما بعد، وجد نفسه أكثر ميلا إلى مصطلح قصيدة النثر، وذلك بعد إدراكه للتناقض الكامن في هذه القصيدة، مما يجعل من المصطلح أفضل معبر عن طبيعة هذه القصيدة وهويتها، فهي تقوم على وحدة الأضداد (شعر ونثر، حرية وصرامة...إلخ).[11]

ويرى غالي شكري أن تسمية"قصيدة النثر" تسمية خاطئة [12]، معتبرا إطلاق هذه التسمية آخر رواسب الحس الكلاسيكي في حركة التجديد الحديثة في الشعر العربي[13]، ذاك أن إطلاق هذه التسمية ضمن إطار حركة الشعر الحديث يدفع بنا إلى الوراء، إلى منطقة يحاصر فيها الفنان بمجموعة من القواعد ثابتة، في حين أن مايميز الرؤيا الحديثة في الشعر يجعل ثمة فروقا بين شاعر وآخر بحيث لا يمكن الجمع بينهما <<على مائدة واحدة>>[14]. كما يرى غالي شكري أن إحلال كلمة "نثر" محل كلمة وزن لا يعبر في حقيقة الأمر سوى عن رد الفعل لا عن الفعل << الذي يصنعه الشعراء الحديثون>> ،لأن قصيدة النثر تقوم بذلك في الطرف النقيض لما يدعى بقصيدة النظم، وبهذا يلتقي دعاة هذه وتلك عند حدود مفهوم للشعر يتميز بأنه مفهوم كلاسيكي أي المفهوم الشكلي للشعر.[15]ومن ثم يعتبر تسمية "قصيدة النثر" مسيئة إلى دعاتها كما هي مسيئة للناقد الحديث الذي كف عن مطالبة الشاعر << بمقاسات معينة لقصيدته>>[16]. ولذلك يقترح تسمية أخرى هي " **التجاوز والتخطي**".[17]

وفي المسار نفسه، مسار الرفض لمصطلح "قصيدة النثر" يسير عبد العزيز المقالح الذي مقررا خطأ هذه التسمية، مقترحا مصطلحا بديلا هو **"القصيدة الأجد"**، ويستند المقالح في رفضه هذا إلى اعتبارات عدة منها أن إطلاق صفة النثرية على هذا الشكل الشعري يقيم حالة من التضاد، فالنثر نثر والشعر شعر ولا يلتقيان.[18]ولعل الموقف ذاته هو الذي دفع محمود درويش إلى مطالبة كتاب قصيدة النثر الجيدين أن يبحثوا عن تسمية أخرى [19].

ويذهب عبد الكريم الناعم مذهبا قريبا من ذلك حين يعلن أن تسمية "قصيدة النثر " لا تخلو من تضاد (قصيدة، نثر)، وهو اسم يقترب بتناقضه من تحديد هذا الجنس إلى حد بعيد انطلاقا من اعتباره فوق الخاطرة عند البعض، وقريبا من الشعر عند البعض

الآخر.[20] ولكن الباحث لا يملك إلا التسليم بهذا المصطلح بسبب من شيوعه وتعذر استبداله.[21] فهذه التسمية/المصطلح، فيما يرى محمد العبد، ما تزال علما على هذا " الجنس الأدبي" على الرغم مما لقيته من انتقاد يدعو إلى تعديل المصطلح.[22] وعلى الرغم من استعمال العبد لمصطلح "قصيدة النثر" فإنه يقر بعدم رضاه عنه لأسباب أولها أن التسمية لا تقابل مسماها الذي أطلقت عليه، فكانها بذلك <<اسم على غير مسمى>>. وثانيها أن التناقض ظاهر بين الوحدتين المشكلتين للمصطلح (قصيدة، نثر)، بما لكل منهما من ماهية راسخة في التراثين العربي والعالمي. أما ثالث الأسباب فيتمثل في كون هذه التسمية لا تنسجم نع المقولة النقدية الاولية المبنية على الندماج بين الشكل والمضمون[23]، وبذلك يتعارض مصطلح "قصيدة النثر" تعارضا تاما مع ما يتطلبه <<الشكل الذي تنتج فيه كمراعاة الوزن والقافية، أو الوزن وحده على الأقل.[24]، وعليه يصبح هذا المصطلح أبتر لاكتفائه بعلاقته الروحية بالشعر من خلال السمات التعبيرية والتصويرية والانفعالية، وبناء على ذلك يثترح العبد تسمية بديلة لهذا الشكل الأدبي (حسب رأي الباحث) هي " **النثر الشعري**."[25]

ويقف الناقد السوري محمد عزام عند مصطلح "قصيدة النثر " معتبرا إياه تسمية خاطئة، شـــنه شأن مصطلح "الشعر الحر"، والأولى، في نظره، أن تسمى قصيدة النثر بـــ"**الشعر الحر**،" ذلك أن إحلال كلمة "نثر" محل " الوزن" لا يعبر إلا عن رد الفعل لا الفعل لما يدعونه "قصيدة النظم"، إذ ليس النثر في قصيدة النثر هو الذي يمنحها قيمتها الفنية، كما أن النظم ليس هو الذي يمنح القصيدة التقليدية بعدها التقليدي.[26]

أما نجيب العوفي فيرى أن مصطلح "قصيدة النثر" هو الأنسب لهذه الظاهرة الشعرية، فهو يجمع في صيغته الإضافية (قصيدة النثر) بين أهم خاصيتين لهذه الظاهرة، الخاصية الأولى أنها ضرب من الشعر (قصيدة)، والثانية أنها مصوغة بلغة شعرية متحررة في الآن نفسه (نثر)، وما دامت قصيدة النثر جامعة بين << وهج الشعر وسيولة النثر>> فإن تسميتها المتداولة تبقى الأدل عليها والأنسب لها.[27]

من ناحية أخرى يحاول محمد عبد المطلب أن يجذر المصطلح في اللغة العربية، فيذهب إللى أن مصطلح "قصيدة النثر" على الرغم من كونه مترجما عن اللغة الفرنسية إلا أن متابعته للوصول إلى أبعاده المعجمية تعطيه شرعية الحضور، فمادة "قصد" في "لسان العرب" ترتبط بالقصد، كما أن ابن منظور لم يربط بين القصيدة والوزن أو القافية، وإنما ربطها بالشعر، ومادة "شعر" في المعجم تنتمي إلى الشعور والفطنة والعلم.[28]

وينتهي في محاولته تحديد خصائص القصيدة، من خلال المعاجم العربية، إلى أمرين:

1- أن الشاعر ما سمي شاعرا إلا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره.

2- يقوم مصطلح "قصيدة"، من خلال المردود المعجمي، على ثلاث ركائز:

أ- الفطنة: وهذه الركيزة تتعلق بالمبدع وقدراته الداخلية ذهنيا وعقليا.

ب- الوعي والقصد: هذه الطاقة الداخلية تستدعي المتلقي المقصود خاصا كان أم عاما، كما تستدعي العالم لكي تراه من خلال وعيها الكلي أو الجزئي.

ت- التجويد في الأبنية السطحية(اللفظ) والأبنية العميقة(المعنى): وهذه الركيزة تقدم النص المفارق للنصوص التلقائية، أي تقدم اللغة الجمالية المفارقة للغة التخاطب.[29]

وفي السياق نفسه، يشير صلاح فضل إلى أن التأمل في الجذر اللغوي لكلمة قصيدة يفضي بنا إلى تبين فكرتين متلازمتين يشير إليهما ذلك الجذر، إحداهما هي القصد والتعمد، فالقصيدة كلام مقصود في ذاته، أي أنها اللغة عندما تصبح كلاما فنيا محددا، وليست مجرد وسيلة تواصلية تنتهي بمجرد انتهاء وظيفتها(التواصل)، وهذا القصد هو الذي يميز قصيدة النثر عن أشكال الشعر الأخرى كالشعر المنثور أو النثر الشعري حيث تفتقد مركزية القصد الشعري. أما الفكرة الثانية فتتمثل في الاقتصاد، أي أن لغة القصيدة لا بد لها أن تتميز بالقصد والتركيز والتكثيف[30]. ولذلك لا يرى فضل أي تناقض دلالي في مصطلح "قصيدة النثر" باعتبار أن جذر القصيد لا يتضمن

الأوزان العروضية، فبإمكان النثر في بعض حالاته أن يكون مقصودا لذاته جماليا واقتصاديا، فيتخلق منه هذا الأسلوب الجديد.[31]

إن هذا الجدل حول المصطلح لا يعزى إلى مجرد اختلاف في الأذواق النقدية، ولكنه نابع، في رأينا، من الاختلاف الحاد في المواقف الفكريت والمرجعيات الثقافية التي يستند إليها النقاد والأدباء، بيد أن الأمر الذي ننبه إليه هو أن مصطلح قصيدة النثر قد صار مصطلحا متمكنا في الساحة الأدبية، بغض النظر عن صوابيته وعدمها.

الهوامش

---

1 - انظر عزت جاد الحق: نظرية المصطلح النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2002، ص 435.

2 - انظر محمد عبد المطلب : قصيدة النثر، الجسرة الثقافية، ع2، قطر 1999، ص 27.

3 - انظر أدونيس: الشعر العربي ومشكلة التجديد، في " نظرية الشعر، مرحلة مجلة شعر، القسم الأول(المقالات)، تحرير وتقديم محمد كامل الخطيب، وزارة القافة، دمشق1996، ص 356.

4 - انظر المرجع نفسه، ص 364.

5 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

6 - انظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

7 - انظر عز الدين المناصرة: إشكاليات قصيدة النثر، نص مفتوح عابر للأنواع، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت2002، ص 262.

8 - انظر صلاح فضل: أساليب الشعرية المعاصرة، ط1، دار الآداب ، بيروت 1995، ص 217.

* - العدد 14، ربيع 1960. ثم نشرها لاحقا في كتابه" زمن الشعر".

9 - عزت جاد الحق: نظرية المصطلح النقدي، ص 436.

10 - انظر الإبهام في شعر الحداثة،العوامل والمظاهر والآليات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت2002، ص163.

* - في مقال له عنوانه" في الإبداع والتلقي"، عالم الفكر، المجلد 25، العدد 4، أبريل /يونيو 1997.

11 - انظر عبد الرحمن محمد القعود، الإبهام في شعر الحداثة، ص163. ويشير الباحث إلى أن التناقض الكامن في قصيدة النثر قد استمدته من الحداثة. انظر الصفحة نفسها من المرجع نفسه.

12 - انظر غالي شكري: شعرنا الحديث إلى أين؟ ط1، دار الشروق، بيروت1991، ص56.

13 - انظر المرجع نفسه، ص 82.

14 - انظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

15 - انظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

16 - انظر المرجع نفسه، ص 83.

17 - انظر المرجع نفسه، ص ص 56، 88.

18 - انظر عبد العزيز المقالح: أزمة القصيدة العربيـــة، مشروع تساؤل، ط1، دار الآداب1985، ص 71. والملاحظ أن المقالح لا يثبت على المصطلح البديل الذي يقترحه، إذ سرعان ما يستبدل به مصطلحا آخر هو" **النص الشعري** " وذلك بدءا من الصفحة 74 من كتابه المذكور.

19 - انظر عز الدين المناصرة: إشكاليات قصيدة النثر، ص 77.

20 - انظر عز الدين المناصرة: إشكاليات قصيدة النثر، ص 306.

21 - انظر المرجع نفسه، ص 311.

22 - انظر محمد العبد: اللغة والإبداع الأدبي، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ص 177.

23 - انظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

24 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

25 - انظر المرجع نفسه، ص 178. ولكن الباحث يحافظ على تسمية "قصيدة النثر" بدءا من عنوان الفصل الذي يتحدث فيه عن هذه القصيدة، معللا ذلك بشيوع هذه التسمية من ناحية، وبكونها، من ناحية ثانية،التسمية المحببة إلى من يمارسون كتابة هذا الشكل الأدبي حسب تعبيره.

26 - انظر المرجع نفسه، ص25.

27 - انظر المرجع نفسه، ص 266. والملاحظ أن العوفي لا يوافق النقاد القائلين بالتناقض في التسمية (قصيدة، نثر) انطلاقا من أن القصيدة تتطلب أولا الشرط الإيقاعي، بينما يعني النثر التحرر من كل الشروط والقيود. انظر ص 265. لكن العوفي لا يعلل موقفه ذاك على الرغم من أنه لا يقول بوجود أي إيقاع في قصيدة النثر.

28 - انظر محمد عبد المطلب: قصيدة النثر، ص35.

29 - انظر المرجع السابق، ص 36.

30 - انظر صلاح فضل: أساليب الشعرية المعاصرة، ص218.

31 - انظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.